



تأملات في الحرب والسلام عند كانط



ناصر الجارحي

يسعى الكاتب قيصر الجلبيدي إلى سرد عدد من التأملات حول ثنائية الحرب والسلام من خلال دراسة الطبيعة الإنسانية وذلك في مقاله المنشور في مجلة التفاهم الذي يتحدث حول «مشروع كانط للسلام الدائم: الفلسفة والآثار»، وهي محاولة لعرض عدد من التساؤلات في هذه القضية التي شغلت بال عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين مسترشدا بتأملات واقتباسات من كتاب كانط «مشروع سلم دائم محاولة فلسفية»، ولقد أشار الكاتب بأن المحاولة الجريئة للفيلسوف الألماني تعكس قلقا وجوديا عند الإنسان تجاه ثنائية الحرب والسلام وسعيًا مستمرًا لإيجاد سلم دائم، لذا لا غرابة أن تكون رواية الحرب والسلام للأديب الروسي ليو تولستوي في القرن التاسع عشر أحد أهم الأعمال الروائية في الأدب العالمي.

مدني وتمت الإطاحة به فيتحول إلى مواطن عادي عليه أن يقوم بواجباته ومسؤولياته وليس عليه الانقلاب على الحكم مجدداً. وهي صورة مثالية يرسمها الفيلسوف عن حالة الحكم في داخل البلد وبعيدا عن الواقعية التي تفرضها معطيات عديدة ومتباينة، وأما في إطار السلم بين الدول فإن كانط يرفض كل أنواع الاعتداء قائلا: «لا يسوغ لأي دولة مستقلة (صغرت أو كبرت)، فهذا لا شأن له في هذا المجال) أن تستحوذ على دولة أخرى لا بالميراث ولا بالمبادلة ولا بالثراء ولا بالهبة»، كما استنكر كانط التحالفات العائلية في أوروبا وذلك لحماية ملكها من الانهيار واشترط استشارة المواطنين حتى لا تجيش الدول لصالح دولة أخرى لأنه يؤدي إلى استعمال المواطنين وكأنهم أشياء يسوغ استخدامها واستثمارها حسب الأهواء، لذلك نجد أن استعراض رؤساء الدول لجيوشهم ومباهاتهم بها هو نوع من المخاطرة والعبث بالبشر وإدخالهم في حروب لا شأن لهم بها.

إن إيجاد تحالف للسلام بدل معاهدات الصلح وخلق ميثاق الاتحاد بين الشعوب، من أهم الوسائل التي اقترحها كانط لتحقيق سلام دائم مدركا في الآن ذاته وجود تحديات وصعوبات لا يمكن تجاهلها تتعلق بالفرق بين المسؤولية العاقلة والمسؤولية المجنونة، وكذلك كيل الدول بمكيالين حيث إنها تسعى إلى تحقيق السلام في بلدانها بينما تمارس أنواعا من الاستعمار والاحتلال ضد الشعوب الأخرى مستشهدا بالاحتلال الأوروبي لشرق آسيا والهند وإفريقيا، وهي إشارة مهمة من الكاتب حول صعوبة تحقيق مبدأ السلام وذلك لارتباطه بنواع شخصية وأخلاقية، لذا نحن بحاجة إلى نظام يحقق التناغم السياسي الأخلاقي، وهما أمران منفصلان في عدد من الممارسات السياسية، لأن الممارسات عادة تتجه إلى الواقعية بغض النظر عن طبيعة الأدوات المستخدمة.

من تطبيقها والذي هو في الأساس دور الفلاسفة، لأن السياسي بطبيعة الحال يحاول استغلال القوانين لمصالح معينة، بينما يكون دور الفيلسوف تقديم خدمات استشارية وإرشادية تساعد على تحقيق السلم وعدم التفرّد بالسلطة.

يرى الكاتب بأن كانط حظي بتجربة فلسفية وتاريخية وواقعية مهمة جدا، فلقد استطاع تأليف كتابي «نقد العقل المحض» و«نقد العقل العلمي» مسترشدا بتجارب من سبقوه مثل نيوتن وجاليليو وديكارت وفي الآن ذاته عاش تجربة الثورة الفرنسية لتكون اختبارا حقيقيا لمحاولته الفلسفية نحو السلم الدائم، حيث إن الثورة بطبيعة الحال هي نوع من الحرب، وتتمثل رؤية كانط في الثورة بأن عصيان الشعب للسلطة الحاكمة المستبدة هو أمر مشروع لأنه ثورة ضد انتهاك حقوق الشعب وإسقاط للطاغية، ولكن في الآن ذاته يشدد كانط على أن العصيان أو الثورة يجب ألا تحدث إلا وفق شروط وضوابط تساعد في تحقيق النصر وتجنب الخذلان؛ لأن الخذلان تنجم عنه كوارث لا تعد ولا تحصى بل ويزيد من حجم الاستبداد وهو ما يؤثر بطبيعة الحال على السلم، ويعتقد أيضا أن الرجوع إلى النظام المدني وسلطة الدولة ليس انتزاعاً للحرية الفردية بل انتزاع لنوع محدد من الحرية في الإنسان وهي الحرية المتوحشة واللجوء إلى الحرية السليمة والتي بالتالي تروض الطباع الإنسانية، وإن كانت القوانين المدنية لا تكفل الحق الإنساني فليس على الفرد القيام بعصيان مدني وكسر القوانين لأنه نوع من التهديد للسلم العام ولكن له الحق كل الحق في النقد والشكوى من الظلم الذي يتعرض له بسبب القوانين، ويرى كانط أيضا في إطار تحقيق السلم الداخلي بأن جميع أفراد الشعب هم أعضاء منتسبون للدولة يجب عليهم اتباع القوانين ومحاسبتهم على أي عصيان إلا الرئيس فهو ليس عضوا في الدولة بل هو فوق المحاكمة والمحاسبة، وهو من يفرض القوانين وليس عليه أن يستجيب لأحد، وإن قام عليه عصيان

يرى إيمانويل كانط بأن الحرب غير مرتبطة بدوافع وأسباب من أجل وقوعها بل هي متجذرة في الطبع البشري، وتعتبر عملا نبيلًا عند المجتمعات دون النظر للمصلحة المرجوة جراء المشاركة في الحرب، لذلك علينا أن نتعامل مع مفهوم الحرب على أنه أمر متجذر وليس على أنه حادث عرضي وهو ما يدفعنا إلى إيجاد مشروع سلم دائم، ويرى عدد من الفلاسفة كتوماس هوبس وسبينوزا ونييتشه بأن غريزة الحفاظ على البقاء وإرادة الحياة هي من أهم الدوافع في الهوية البشرية، فالإنسان في رأي كانط بطبيعته متوحش إلى أن تروضه التربية والقيم الأخلاقية والسياسية والجمالية، ويبرر كانط مشروعه رغم اعترافه بوحشية الإنسان الخام وحاجته الماسة للتربية من خلال اعتقاده بأن كل جيل يربي الجيل القادم إلى أن يصل الإنسان إلى مرتبة الإنسانية الكاملة، لذلك نجد أن كانط يخلق نظرة تفاؤلية للمستقبل إذا ما تم الأخذ بالأدوات الممكنة دون الرضوخ للواقع وهو ما يترجمه كتابه «تأملات في التربية»، معترفا في الآن ذاته بصعوبة الأمر وأن الانتظام ورضوخ الناس لمبدأ السلم ليس بالأمر الهين، وذلك لأنه يتعارض مع الطبيعة البشرية المتوحشة، لذلك ولأجل فرض هيمنة السلم على الإنسانية وضع عددا من الشروط من أهمها أن يكون مشروع سلم عالمي، وهي فكرة استباقية يقدمها كانط قبل أكثر من قرن من قيام عصبة الأمم، وكذلك ضرورة استناد الدول للشروط التي يحددها الفلاسفة كأسس لإقامة السلام الدائم بين البشر، وهنا لا يدعو إلى دولة الفلاسفة بل يحذر من الجمع بين السلطتين؛ لأن وظيفة الفيلسوف الممارسة النقدية الحرة المستقلة والبعيدة عن الرغبات والتوجهات المؤدلجة في حين دور السلطة الحاكمة الاهتمام بالشأن العام، وهما سلطتان منفصلتان تعملان بشكل متكامل، حيث إن الفقيه القانوني يسعى إلى تطبيق القوانين والتأكد من تفعيلها دون البحث حول مدى صلاحية هذه القوانين والجدوى